إسق العطاش

للاستاذ حسني كنعان

سألني صديق عن فصل (اسق العطاش) ، وسألني آخر عن آثار القباني ، وها أنذا أجيب على السؤالين

اسق العطاش : نوع خاص من أنواع الموشحات العربية القديمة المجهولة التوارثة اختصت بحفظه مدينة حلب وحدها دون سواها من المدن العربية . ولهذا النوع من الأثر طابع خاص عرف به في النظم واللحن والإنشاد طغت عليه النزعة الصوفية . فأنت إذ تصاقع أذناك هذا النوع من الموشحات الأخاذة الساحرة وتصغي بكل حواسك وجوارحك إليه تخال نفسك كأنك قابع في زاوية من زوايا السادة الصوفية تضوعت في جنباتها روائح الند والمسك والطيب فتذهل عن الدنيا لشدة ما يعتريك من الخشوع والطرب والورع تأثراً بهذه الأنغام الرائعة والمعاني المتعة فيأخذك العجب مما جادت به قرائح الأجداد الفياضة التي إن دلت على شيء فإنما تدل على ما كانوا عليه من شغف بالفن وانكباب بجهود في إحيائه والنهوض به ...

والفصل برمته مأخوذ عن كتاب خطي قديم عنوانه (سلافة الألحان) يقع في مئة وخمسين صفحة على الجلة ، قد دون بخط جامعه السيد (محمد الوراق) الحلبي المنبت وكان رحمه الله من المعنين بهذا الفن البارزين. وله في حلب عدة تلاميذ لا يزالون حتى الآن يحفظون له هذه اليد

وكان منشداً في التكية الهلالية فدانقطع للنسك فيها والعبادة والتصوف، وقد تيمه الحب وهاجه الوجد والغرام في هذه الطرق ، فجمع هذا الفاصل الأثري وعنى بتعلمه وتعليمه فكان له ما أراد من فضل في نشره وإحيائه ... (١)

ولقد اختلف الرواة في منبع هذه الموشحات ، فمنهم من نسبها إلى مصر وذهب إلى أن مياه النيل في عام من الأعوام قديماً قد نقصت وضنت السماء على سكان الوادي الخصيب بالمطر فما جادت عام مئذ بقطرة واحدة ، ففزع أهل القطر إلى المراء يستمطرون الرحمة والغوث من لدن رافع السماء وباسط الأرضين ، جاء في مطلع أدعيتهم :

ياذا العطا ياذا الوفا
ياذا الرضى ياذا السخا
إسق العطاش تكرما
فالعقل طاش من الظما

ومن قائل إن هذه الحادثة وقعت بحلب ، ودليله على ذلك العادة المتبعة حتى الآن من فزعهم ولجوئهم إلى المراء حتى اليوم يستغيثون ويستمطرون الرحمة كلما ضنت عليهم السحب بالغيث فيجأرون بهذه الأدعية والموشحات. وإلى هذا فصر فيها خزانات لإرواء تربتها يفزع إليها كلما ضن النيل وبخلت السحب بالأمطار

ومن قائل بأن هذه المخلفات الفنية من وضع الصوفيين تهدف بمعناها ومبناها وموسيقاها إلى نزعة غزلية صوفية يقصد بها الإشارة والديح للذات القدسية العلية والتغزل بها والتقنى بمحامدها ومفاتنها على سبيل التعبد ، وأنها تتلى بالأذكار وحلقات التكايا والزوايا لهذه الغاية

وهي موشحات كما ترى لا تتنافى مع مبادئ الدين الحنيف في شيء ، وقد سبق لابن الفارض والسيد الجيلاني وابن العربي وعبد الغني النابلسي أقوال كثيرة في هذا المعنى من الغزل الصوفي، ولذا تراها تستعمل في بلادنا في كل حفل ديني يؤتى فيه على ذكر الله الملك الديان ، ويغلب على نغم هذه الموشحات النغمة الحجازية وقد يدوم إنشادها في الأذكار والحفلات زهاء أربع ساعات دون انقطاع يتخللها نغمة العراق والعجم في بعض الأحيان ، إلا أن نغمة الحجاز هي الغالبة على جميع الأنغام في هذه الآثار

والعادة المتبعة عند الحلبيين أن يهيئوا لها أحسن العازفين والمنشدين فتبدأ الأنغام في بادئ الأمر ببطء متزايد وصوت غليظ ثم يأخذ هذا الصوت في الحدة والشدة والدقة حتى تعلو الأصوات وتدق ، ويشتد العزف ويخف بحسب المعنى إلى أن يندو السامع كأنه ثمل بنشوة الطرب ، وعندما تكون الحلقات معقودة وتأخذ رجالها النشوة تزلق أرجلهم وأيديهم وصدورهم إلى البدء

---

(١) مصادر هذا الفصل عن رسالة الأبرى

في رقص السماح الذي تحدثت عنه في الرسالة - آنفا وينتهي هذا الفاصل من الموسيقى إلى فاصل إنشاد ورقص وطرب فتسمع وترى عندئذ من القاعين على شؤونه العجب العجاب ، وعندما يشمر أبطال هذه الحلقات بتعب أو ضنى ينسل من الحلقة منتحيا ناحية في المكان ، فإذا ما شمر غيره بتعب صنع صنيعه وهكذا يظل أبطال الحلقات يتسالون لواداً الواحد تلو الآخر ويكون ذلك بعد مضي أربع ساعات على التحقيق إلى أن تنقطع الحلقة وينفض المتحلقون من حولها وينتهي هذا الفاصل الغنائي الرائع الأخاذ .

أذاعت جزءاً من هذا الفاصل محطة حلب الإذاعية منذ أمد بإشراف الأستاذين الشيخ عمر البطش الذي فقدته سوريا بالأمس وفقدت بفقده كنزاً ثميناً من الكنوز الفنية التي لا تعوض ، وبإشراف الموسيقار توفيق الصباغ . وما كاد يمضي مدة على إذاعة مختارات من هذا الفاصل الأثري الخالد حتى بادرت إدارة محطة الشرق الأدنى إلى الشخوص لحلب فتعاقدت مع أرباب هذه الصناعة من المذيعين وأخذت تسجيلا خاصاً عنه . ولا ريب أن محطة دمشق ومصر والعراق وبقية محطات المدن العربية كانت أولى بحفظ هذه المخلفات الأثرية من محطة الشرق الأدنى قبل أن يمضي عميدها المرحوم الشيخ البطش، ولكنا نحن معشر الشرقيين نستهين بتراثنا الفني ونهمل رجالاته فإذا ما فقدناهم ندبنا حظنا وذرفنا الدموع سخينة على افتقادهم ، وإني ختاماً لهذا البحث الفني أراني ملزماً بذكر بعض مقطوعات مما ورد فيه تتمة للفائدة وتعميما للنفع عسى أن يجد أبناء الفن الباحثون المتلذذون منهم والمتكسبون فيه ما تصبو إليه نفوسهم ويشفي غليلهم

قالسادة أصحاب الطرق يذهبون في هذه الموشحات مذاهب شتى ، فمنهم من يجعل الحبيب الذي يتغزل به غزالا ، ومنهم من يجعله إنساناً ذكراً أو أنثى ؛ ولا يعلم إلا الله خفايا أسرارهم فيتغزلون بدعد وهند وليلى وسلمى وإلى ما هنالك من أسماء الأنثى ، ومنهم من يتغزل بالذكر ويجعل المحبوب رسولا أو إلها أو ولياً من الأولياء فهم بهذه الحالة يظهرون مالا يبطنون . ومن أقوالهم في ذلك

يا غزالي كيف عني أبعدوك	شتتوا شملي وهجري عودوك
يا غزالا بالهوى ما أجملك	يا ترى في قتلتي من حللك
كنت لا أعشق خلا ما خلاك	حملوك الهجر حتى واصلوك
قلت رفقاً يا حبيبي قال لا	قلت راع الود يا ريم الفلا
قال من يهوى فلا يشكو الملل	قلت حسبي مدمعي قال سفوك
قلت مولى قال ذا شيء بعيد	قلت عبداً قال لا أرضى عبيد

ومن قولهم في ذلك :

أهوى الغزال الربرى يا مي الجمال	حلو المباسم سكري ريقه حلالي
أهيف حوى كل المحاسن والكمال	إذا تبدى يتجلى مثل الهلال
يا عاذلي اقصر كلامك عن غرامي	ما للعواذل في هوى روحي ومالي

هذان الموشحان من نغمة الحجاز

وهذا موشح من النوع الذي يتغزل فيه بالأنثى :

هيفتني	تيمتني	عن سواها سلتني
أخت	أنس	ذات شمس
دون	كأس	أسكرتني
لست أسلوها ولو	في نار هجران كوتني	
ذات عقد ذات بند	أسبلته فوق نهد	
أيها الساقي قدندن	باسم من قد آنستني	
عاذلي ماذا عليها	بالقا لو أتحفتني	
سوسن الورد الرخيم	يسلب القلب السليم	
تسبل الشعر البهيم	فوق أعطاف سبتني	
ليلة بت معها	بالصفا لما دعتني	

وإليك نوعاً آخر من أنواع الغزل الصوفي نختتم به هذا النوع من الموشحات

مولاي أجفاني جفاهن الكرى	والشوق لاعجه بقلبي خيما
مولاي لي عمل ولكن موجب	لمقوتي قامن على تكرما
واجل صدى قلبي بصفو محبة	يا خير من أعطى الجزاء وأنعما
يا ذا العطا يا ذا الوفا يا ذا الرضا	يا ذا السخا إسق العطاش تكرما
أغث اللهفان وارو الظمآن	واسقنا يا رحمن من منهل الإحسان

أما الاستيضاحات التي طلبها مني السيد محمد يوسف نجم من جامعة فؤاد الأول فالجواب عليها أورده على الجملة فيما بلي هذا باقي فيه ما تصبو إليه نفسه :

١ - لم يسبق محاولة مسرحية في سوريا قبل القباني وإنما الذي عرف أن أستاذه علي حبيب الحكواتي كان يخاطب الصور

الخيالية من وراء (خيمته) بلهجة تمثيلية فيها الحوار والسؤال والجواب. وكان القباني يلازمه ويقتبس من لهجته التمثيلية ومحاوراته اقتباسات أفسحت أمامه المجال لوضع نواة التمثيل في مخيلته، وكانت ورقة فرنسية أمت سوريا للتمثيل فيها فحلت في مدرسة (العذارية) في باب توما، فحضر القباني هذه الروايات وشهدها جميعها فأخذ فكرة عن التمثيل والمسرح. وفي عهد الوالي عبد اللطيف صبحي باشا ظهرت أولى مسرحياته وألف رواية (ناكر الجميل) ومثلها أمامه سنة ١٢٨٨ وكانت سوريا والبلاد العربية لا تعرف شيئاً عن التمثيل قبل هذا التاريخ

٢ — أما كتبه ومؤلفاته المسرحية فإنها مذكورة في كتاب الموسيقى الشرقي لمؤلفه المرحوم كامل الخلعي. ولقد أجهدت نفسي كثيراً لأحصل على نسخ منها فلم أظفر لأن ولده المرحوم خليل أودع مؤلفات والده عند شريك له في المحاماة من آل المجلاني، ولما توفي خليل المذكور أنكرها واحتجزها لنفسه كما فعل شقيق الشاعر الزين رحمه الله بأشعار أخيه الفقيد. وعبثا حاولت الحصول على نسخ منها. ولما أعيتني الحيلة والأمانة للعلم والبحث قصدت نائب دمشق الأستاذ فخري بك البارودي وطلبت مساعدتي للحصول على تراث القباني، فجال بمكتبته الفخمة جولة ثم عاد يحمل إلي روايتين مطبوعتين في القاهرة بقلم القباني نفسه قد أكلت حشاياها الأرضة رعى عليهما النسيان، إحداهما رواية، هرون الرشيد، والثانية رواية الأمير محمود نجل شاه العجم، فسترت بعثوري عليهما على كنز دفين أو معدن نادر. ولم أتبين تاريخ وضع رواية الرشيد لاعتراء مغافها، أما السلطان محمود فلقد طبعت بالمطبعة العمومية بمصر سنة ١٣١٨ هـ

فرأيي في أسلوب الروايتين لا يخرج عن رأي أديب يرى في هذا الأسلوب المسجع أسلوباً لا يليق أن يتخذ قدوة في هذا العصر، فرواية الرشيد تدور حول مؤامرة القصر والست (زبيدة) وحادثتها مع قينة الرشيد (قوت القلوب) وموضوعها لا بأس به على الجملة. أما الرواية الثانية فليس لها مثل أسلوب الأولى وليس لها منزاها. ولقد صدرت رواية الرشيد بعهد الخديوي عباس ودليلي على ذلك ما جاء فيها من قول مؤلفها :

دام في عصر مشيد غوثنا عبد الحميد
وبه نجم السعود قد تبدى في صعود

وبعباس المعالي بسمت بيض الليالي

ومن هذه الأرجوزة الجذلة تعرف مقدار فهم القباني ومقدار مواهبه الشعرية والنثرية. ولا أظن أن المكتبات الكبرى في القاهرة تخلو من آثار القباني إذ أنها كلها مطبوعة في القاهرة. وكانت في عصره منتشرة ولا يعدم الباحث المدقق وسيلة للعثور عليها كما وجدت أنا الوسيلة للاطلاع على بعضها على رغم فقدانها

٣ — أما ما ورد في السؤال الثالث عن احتمال وجود مدرسة فنية في دمشق اهتدت بهدى القباني وتتبعت خطاه، فهذا أمر ينفيه الواقع. لأن القباني بعد مغادرته الديار الشامية وهجرته لمصر انقطعت أخباره عن سوريا وتعطل المسرح من بعده وانتقل هذا الفن إلى الديار المصرية حيث لاقى فيها تربة خصبة وصدراً رحباً وكان وصوله إليها في عهد الخديو توفيق وعاصر عباساً ولم يعد إلى بلاده إلا بعد أن نشر الفن في ربوع النيل السعيد وتخرج هناك على يديه الكثيرون ممن ذكرتهم في مقالاتي السابقة في الرسالة الغراء. والشيء الذي أريد أن أقوله : إن القباني وقد مضى على تاريخ وفاته هذه السنون الطوال لا يزال أعقاب بعض أعدائه من الشيوخ المحافظين الذين كانوا يناوئونه ينظرون إليه نظر المخرق الخارج الذي أحدث ثلمة في الدين وأوجد بدعة يعاقاب به من أعمال فنية في ذلك الزمن. وهم يلوموني إذ أكتب عنه هذه الفصول. وهذا دليل على التأثير البالغ الذي أحدثته رواياته وقتئذ لدى آبائهم وأجدادهم المعاصرين له. وقد غالى بعضهم في اللوم والعتاب وحظر على الكتابة في هذا الموضوع بداعي أنه يثير حزازات قديمة، وهؤلاء الأعقاب كما ترى قد ورثوا العداء لهذا المغني العالمي كابراً عن كابر، وأنا إذ أعود إلى نبش هذا الموضوع من جديد ألقى التبعة في ذلك على عاتق السيد نجم لأنه هو السبب في إثارته من جديد فعليه يقع الكفر، وأما إنما أنقل ما يطلب إلي، وناقل الكفر ليس بكافر

٤ — وأما طلب السيد نجم بإتمام بحثي عن القباني في الرسالة فهذه مهمة سأتفرغ لها وأكتب فصلا خاصا عن القباني الموسيقي كما كتبت عن القباني الممثل إجابة لرغبته وإن كانت هذه الرغبة تكلفني غاليا كما أشرت

دمشق — مصطفى كنعان